

8

قصص الصحابة

الفتى
الحكيم

سلوى العناني

دار اللغات

جميع الحقوق محفوظة

الفتى الحكيم

(مصعب بن عمير)

[لقد رأيت مُصعباً هذا .. وما بمكة فني أعلمُ بعد أبويه منه ،
ثم ترك ذلك كله حُباً لله ورسوله] صدق رسول الله ﷺ

هو فتى من أبهى فتيان قريشٍ مظهرًا وأكثرهم أناقةً
ووسامةً .. وهو فوق هذا من أحكم شباب جيله وأكثرهم
روانةً ووقارًا ورجلًا عتلي ..

ولقد وشبُّ في أسرةٍ من أكثر أسرِ مكة ثراءً .. وكان
موضعَ تدليلٍ من أبويه فمُنحه من أسباب الرفاهية والأناقة
كما منحه الطبيعةً جميلَ القوام والبشرة والملامح ليصبح زينةً
المجالس ومضربَ الأمثال ..

هو (مصعب بن عمير) .. (مصعب الخير) .

ذهبَ (مصعب) في رحلةٍ صيدٍ خارجَ مكة .. ولما عادَ شعرَ
بأن شيئًا جلدًا قد حدثَ .. فالتبسُ يتكلمون .. يتهايسون
ويتصايحون .. والجميعُ يحكي عما حدثَ من يومٍ عنفٍ

اعتلى (محمد الأمين) جبل الصفا ونادى في القبائل .. ولما
اجتمع الناس حوله قل لهم : "إني رسول الله إليكم غلصاً
وألى الناس عامة" ولأن مصعباً كان شاباً حكيماً وخصيفاً ..
فقد أراد أن يعرف أكثر ليكون حكمه على الأمر صحيحاً
وسليماً . وكان لابد أن يسأل .. فسأل صديقه (جبير بن
مطعم) .. وأخبره الأخير أن (محمدًا) قل إنه يتلقى وحياً من
ربه وأنه تلا بعض هذا الرحي -

فسأله (مصعب) : وماذا قال ؟

وتلا جبير :

(لَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُنْذَرِينَ وَالسَّابِقِينَ
غَشِيرَتِكَ الْآفَرِينَ وَأَعْظَمُ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعْتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِلَهِ يَرْيَهُ مِمَّا نَعْمَلُونَ)

[الشعراء : 213 - 215]

ونأمل (مصعب) هذا القول ونعجب .. إنه حديث حلو
طليح لم يسمع مثله من قبل .. فهل هو حقا وحي من عند
الله .. أم لا ؟ إن محمدًا معروف بالامانة والصدق مع
الناس .. فكيف يكذب على الله ؟

راح (مصعب) بفكرُ وقد ملا عليه هذا الأمرُ عقله وقلبه
فزهّد في الطعام .. وجفّه النوم .. وامتلأ رأسه بالأسئلة
وصنم في الصباح أن يجدَ لأسئلته الجائرة إجابةً شافيةً .

إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم) فلدته قدعه كما فلقه قلبه
فجلس بين يدي رسول الله يسأله ويسمع منه صادق
الحديث .. وقيل أن يغافر (مصعب) المكانَ كان قد نطقَ
بالشهادتين أمام رسول الله .

كان (مصعب بن عمير) سيدًا في قومه ، ثريًا ، مرحوبًا
الجانب ، فهو لا يخشى غضبَ سائدٍ قريشٍ من إسلامه ،
لكنه كان فقط يخشى غضبَ أمه (حنان بنت مالك) التي
كانت واحدةً من أثرياء مكة المعدودين بهاها سائد قريش
ويحسبون لها ألف حساب .. وكانت امرأةً غنيةً منطرفةً في
إيمانها باللهها الحجرية التي تسجد لها وتحرس على
إرضائها .. لهذا فقد أخفى (مصعب) عنها إسلامه فكان
يعلي سرًا ويتسلل في المساء إلى (دار الأرقم) فيبتزود من
لقام الرسول الكريم بزاو الإيمان . لكنه كان من المستحيل
أن يظل الأمر سرًا في مكة .. هذه المدينة التي اشتهرت

جنابها بهذا الأمر العظيم - نزول الوحي على عمه -

وعلمت (خُتْلَسَ) بحبر تردد ابنها على (دار الأرقم) ..

سأله وأنها الإجابة : (لقد آمنتُ بالله الواحد الذي خلق

السماوات والأرضَ والليلَ والنهارَ وجعلَ الحياةَ والموتَ) .

ووقف (مصعبٌ) ثابتًا شامخًا مزهوًا بإيمانه واتباعه لنور

الهُدَى .. وازدادت ثورة الأم وأمرت عبيدها أن يقيدوا سائقي

ابنها وأن يُلْقُوا به في مكانٍ مظلم من البيت ..

ولم تهتز شعرة من رأس الفتي المؤمن الذي أثار الإيمان

ظلمة عبسه والذي أشبعه ورواه ذكرُ الله .. فلم يَجُوعَ ولم

يظلم .. وانتظرَ رحمة الله ..

وجلته رحمة الله فتمكن من الخروج وانضمَّ إلى قافلة

المهاجرين إلى الحبشة إلى أن أذن الله لهم بالعودة إلى مكة

حيث كان رسولُ الله وصحبُه يواصلون دعوتهم للدين

الحق ..

وما أن دخلَ (مصعبُ بنُ عمير) مكةَ حتى قصَّصَ النبيَّ

الكرِيمَ يُلْقَى في أحضانِه همومَ رحلته ويتزود من حديثه

ومن نصيحته .. وجلسَ (مصعبٌ) ويبيِّط رفاقه المسلمين

الذين تألوا لظهيره وثيابه، وشعر الرسول بما يدور في
أذهانهم، فاشرق وجهه الشريف بابتسامة عذبة وقل:
(لقد رأيت مصعباً هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه
منه .. ثم ترك ذلك كله حياً لله ورسوله) .

وكانت عودة (مصعب) إلى مكة فرصة كي تحاول أمه أن
تُرثِّه عن دينه .. لكن همهمت للقلب العامر بنور الله أن
يبحث عن مغربتي الدنيا وكل الفراق بين الفتى وأمّه ..

كانت مجموعة من أهل يثرب قوامها اثنا عشر رجلاً قد
بايعوا الرسول - عليه السلام - عند العقبة ليكونوا نواة
مسلمة لمدينة مبلكة (منورة) بنبيها .. وعاد هؤلاء ينشرون
دعوة الإسلام بين أهلهم .. واستجابة الكثير لدعوتهم ..
لكنهم كانوا يحتاجون لفتية بينهم يعلمهم ويرشدهم
نصحيح الدين .. فامسكوا إلى النبي أن (ابعث إلينا رجلاً
من أصحابك يفقهنا في الدين ويعلمنا القرآن) فمن هو
الرجل الذي التقى القوي الإيمان الحنيف الحافظ لكتاب
الله فبعث الخلق حسن البين الذي يصلح لهذه المهمة؟

واختار النبي (مصعب بن عمير) لهذه السفارة وهناك من

فَمُ أَكْبَرُ مِنْهُ سَبًا وَأَقْدَمُ إِسْلَامًا .. لَقَدْ وَجَدَهُ أَمَلًا لَهَذِهِ
الْمُهْمَةِ .

ويفلخر (مصعبُ بنُ عُمَيْرٍ) مكةَ مرةً أخرى .. يفلخر البلدَ
التي وُلِدَ فيها والتي عاشَ فيها صباه وشبابه .. وتركها لينتقل
مهمةً جديدةً في سبيلِ الله .

لا بد أن (مصعبًا) كان مشغولًا بالهمةِ التي هو مقبلٌ
عليها فلم يشعرَ بمشقةِ السفرِ .. ولا بد أنه كان يفكرُ فيما
يمكنُ أن يلاقي من صعوباتٍ ومشقٍّ .. لكنه كان - بغيرِ شكٍّ -
- واثقًا من تأييدِ ربه له .. ولا بد أنه كان يستعبدُ نصائحَ
رسولِ الله ودعاه له ..

وعندما لاحَظَ لحيلُ يثربَ من بعيدٍ رفعَ (مصعبُ) كَفِيَّهَ
إلى السماءِ داعيًا ربه أن يوفِّقه إلى ما يحبُّ ويرضى .

واختارَ (مصعبُ) منزلَ (أسعدَ بنِ زُرارة) ليكونَ مقرًّا
لإقامته كما اختارَ صاحبَ البيتِ ليكونَ عونًا له في مهمته ..
ولم لا وهو أحدُ المباهجين في بيعةِ العقبةِ !!

لا بد أنها كانت مهمةٌ شاقةٌ وصعبةٌ فهو ليسَ أمامَ بناءِ

قديم يهدمه ويبني غيره على نسقٍ جديدٍ .. لكنه أمام
عقيدةٍ .. نعم .. عقيدة لها في نفوس أصحابها تاريخٌ
وذكريلٌ وتقديسٌ وتكريمٌ فكيف يستقلُّ هذه العقيدة
المتخلصة ويضع مكانها عقيدة أخرى ؟ .. إنها فعلاً مهمة
صعبةُ .

ونعني الأيام (مصعب بن عمير) ينتقل بين الناس في
الدور والأسواق .. في أماكن العمل وفي تجمعات التجارة ..
يدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويحذوهم
بالتقوى إلى أحسن .. وتتمرُّ الكلمات المضيئة نوراً بعد نور ..
وتتلاها قناديل الإيمان في القلوب فلها بعد قلب حتى يكاد
لا يخلو بيتٌ في يثرب كلها من إنسان يردد أن (لا إله إلا
الله .. محمدٌ رسول الله) . وعندما أتى موسم الحج .. شهدت
الصحراء بين مكة ويثرب فافلةً مباركةً يزيدُ عددُ أفرادها
على سبعين مسلماً تبذلُ تكبيرتها سكون الكوفة .. الله
أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله ..

مناعيلُ عقيدة تعرض لها (مصعب بن عمير) في أثناء
هذه المهمة الجليلة ، ومواقفٌ سجلها التاريخ بوقائعها

وآخرى ابتلعتها الأحداث فراحمت في طي النسيان ..
ولتقف هنا عند الموقف الذي أسلم فيه واحد من أشراف
العرب المعدودين هو (أسيد بن حضير) سيد الأوس
المعروف بالكرم والجود والشجاعة في إبداء الرأي
والاستبسل في الحرب .

كان يوماً غليظاً في حيلة (مصعب بن عمير) في (يشرب) ..
فها هو مجلس في منزل (أسعد بن زراره) يحيطه المسلمون ..
ويستمعون إليه قارئاً للقرآن ومُجيباً على الاستفسارات
مرحلاً لما عرفه من سنة رسول الله عليه السلام .. كان
المستمعون وكلان على رؤوسهم الطير يطلعون إلى وجه
(مصعب) الذي أناره الإيمان ويستمعون إلى صوته
الخاشع .. واقفين معه عند كل لفظ قرآني وعند كل توجيه
نبوي .

وبين الحين والحين .. يقطع سكون المكان طرق خفيف
على باب الدار يستلذن صاحبه في الدخول والانضمام إلى
مجلس الهدى والإيمان ، وفجأة يسمع الحضور دقاً عتيقاً
متتابعاً .. وقام صاحب الدار يستطلع الأمر فإذا (بأسيد بن

خَضِرٍ) شامراً حريته .. تفصح أسارير وجهه عن غضبه
وثورة - وما أن رأى (مصعباً) وقد تحلّق حوله مريدوه
ويستمعون إليه حتى صاح قائلاً : (ما جاء بك إلينا تُسَفِّهُ
ضعفائنا وتغشّر أحوالنا؟ اعتزلنا إن كان لك بنفسك
حاجة ..)

ويهدوء المؤمن الواثق .. الذكي الحكيم .. ودّ عليه
(مصعب) : "أو تحلس فتسمع .. فإن رضيت أمراً قبلته ..
وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره" .

يا له من ذكاء ومنطقي عاقل .. لقد رأى (مصعب) أن
العقل هو اللغة التي يجب أن يتحدث بها مع هذا العاقل ..
ولأنه واثق من صدق دعوته .. فقد كان واثقاً من نجاح
مهمته ..

وأدار (أسيد) الأمر في عقله .. فهذا غريب عن ديارنا وله
عندنا واجب الضيافة .. ثم هو يدعوني لاسمع فيك أن
أصدر حكمي .. وهذه هي الحكمة وعين العقل ..

وأسند (أسيد) حركته إلى الجدار وجلس يستمع إلى قول
(مصعب) - يسأل ويسمع الإجابة .. ويدير في رأسه

منطق عقلاء وقول حكماء .. وشرق النور في قلب (أسيد)
وتنهّل وجهه بالفرحة وشجه بالحديث إلى (مصعب بن
نوفل) :

(ما أحسن هذا الكلام وأجله .. كيف تصنعون إذا أردتم
أن تدخلوا في هذا الدين؟)

ويقفز قلب (مصعب) من الفرحة والرضا ويحييه :
(تغسل فسطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة
التوحيد .. ونصلي وأسرع (أسيد) فاغسل وطهر ثيابه
ونطق بالشهادة أمام (مصعب) الذي علّمه الصلاة .. وقام
الرجل ليصلي ركعتين مؤدّعاً جاهليته مستقبلاً أيام الإسلام
والتوحيد ..

ولنعد لمتابعة هذا الصحابي العظيم (مصعب بن
نوفل) .. فقد عاد مع قافلة النور إلى مكة .. وما أن دخلها
حتى أسرع إلى النبي بملا عينيه وقلبه من وجهه الكريم ..
راح ينقل إليه البشرى .. فقد انتشر الإسلام في (يثرب)
وأعلن زعمائها وأشرافها وقلائها إسلامهم .. لقد ثبت
وجود الإسلام في (يثرب) ..

ويرجع (مصعب بن عمير) إلى (يثرب) ليكون في استقبال رسول الله مع إخوانه من المسلمين الأنصار ..
وتسعد هذه المدينة المباركة بالنبي المبارك وينغير اسمها إلى (المدينة المنورة) .. فهي حقاً منورة بالنبي (محمد) ويصنّبه الكرام .. ويؤاخي النبي بين المهاجرين والأنصار ويؤاخي بين (مصعب) وبين (أبي أيوب الأنصاري) ..

ويستقر الحال بالمسلمين في المدينة المنورة .. لكن الغيظ والحقد لا يهدآن في نفوس مشركي مكة فيجهزون لغزو المدينة أملاً في تحطيم أركان هذه الدعوة .. ويلتقي الفريقان في (غزوة بدر) والتي كانت هزيمة نكراء للمشركين .. عادوا بعدها إلى مكة يحزون أذيل الحية والفشل ويندبون قتلاهم ويرسلون في فداء أسراهم.

كان (أبو عزيـز) شقيق (مصعب بن عمير) واحداً من حملة لواء المشركين في بدر وأسرهم المسلمون . ولما علمت أمه بهذا دفعت له أربعة آلاف درهم فداءً .. وكان هذا أغلى فداء قُدم لفارس من فرسان فريش ..

لكن معركة (بدر) لم تكن نهاية الصراع العسكري بين

المسلمين واشترى مكة بل إنها أشعلت نار الحقد في قلوبهم فجمعوا القبائل وجيشوا الجموش وسالغوا في السليح وخرجوا بظليون الثار من المسلمين .

وكان اللقاء الثاني في (أحُد) .. يومها خرج المسلمون يدافعون عن (المدينة المنورة) عند جبل (أحُد) .. وأعطى رسول الله المواة (لصعب بن عمير) واثفا أنه خير من يقاتل للحفاظ عليه .. واصطفيت جنود الإسلام وطلب النبي من الرمة الصمود في أماكنهم حتى يعطى أوامره بغير ذلك .. وتحقق النصر للمسلمين في أول المعركة وانسحبت جنود الشرك خلفه ورائها الغنائم التي أغرت البعض بترك السلاح للظفر بها .. ونسى بعض الرمة تعليمات رسول الله وظنوا أن المعركة قد انتهت لصالحهم فتركوا مواقعهم .. ويتهم الكفار هذه الفرصة ويعودوا للهجموا على المسلمين هجمة راح ضحيتها سبعون شهيدا من غير صحابة رسول الله منهم (مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ) و(حزرة بن عبد المطلب) .

فكيف كان استشهاد (مصعب بن عمير) ؟

التفت مجموعة من الصحابة حول النبي يدافعون عنه
وهم يعلمون أنه هدف لؤلائ المعتدين الأتقين .. وكان
(مصعب) - حامل اللواء - هو أكثر الصحابة استماتة في
الدفاع عن النبي الذي آمن به .. وكان ينادي بأعلى صوته
(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وقد أكرمه
الله بأن جعلها نصاً قرآنياً نزل به الوحي ..

وتصدى أحد فرسان المشركين (لمصعب) فأصابه في عنقه
وقبل أن تسقط الراية تلقاها المؤمن المجاهد بيسره .. فهجم
عليه هذا الفارس فأصاب بسرا .. ويحتضن (مصعب)
الراية ضاماً عليها أن تسقط ما دام في صدره قلب ينبض ..

وينقض الفارس المشرك برعبه لبغسه في جسم
(مصعب) فيسقط شهيداً محضناً رايته ..

وتنتهي المعركة .. ويقف الرسول عليه السلام ومعه
صحابته وسط جثث الشهداء .. وتجري دموعهم أسفاً على
فراق إخوانهم المجاهدين في سبيل الله ..

وكنتم ألسنتهم

رَبِّ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴿٢٣﴾

[الأحزاب : 23]

ويجولُ الرسولُ عليه السلامُ ببصره بين صحابته ورفق
جهاجه من الشهداء ويقولُ : "إن رسولَ الله يشهدُ أنكم
الشهداءُ عند الله يومَ القيامةِ" وأقبلَ على صحابته بقول :
"أيها الناسُ زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم - فوالذي
نفسِي بيده لا يُسلمُ عليهم سَلَمٌ إلى يومِ القيامةِ إلا ردُّوا
عليه السلامَ" .

ولما أراد أصحابُ (مصعب) أن يكفّوه في بُردته - كانت
إذا غَطُّوا بها رأسه كشفتُ رجلَيْه ، وإذا غَطُّوا رجلَيْه
انكشفتُ رأسه . فقل لهم رسول الله : "اجعلوها عما يلي
رأسه" ثم نظرَ إلى وجه مصعبٍ وقد علاه الترابُ وقل :
"لقد رأيتك بمكة ، وما بها أرقُّ حُلَّةٍ ولا أحسنُ لَمَعٍ
منك" . ثم هاتذا شعثُ الرأسِ في بُردٍ . صدق رسول
الله